

إطلالة على الناصرة: إثنوغرافيا الاستبعاد في الجليل Overlooking Nazareth: The Ethnography of Exclusion in Galilee

Dan Rabinowitz

Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

222 pages.

في الأعوام الأخيرة، حاول الكثيرون من علماء الاجتماع والسياسة الإسرائيليين أن يتناولوا، من ناحية نظرية، مسألة التناقض المتأصل بين تعريف إسرائيل، أيديولوجياً، بالدولة الصهيونية - اليهودية، وبين اعتبارها، في الوقت نفسه، دولة ديمقراطية. ولتبرير هذا التناقض حاول سامي سموحا، من جامعة حيفا، أن يأتي بمفهوم "الديمقراطية الإثنية"، باعتبار أن صفة "الإثنية" تدل على سيطرة الإثنية اليهودية على الإثنية الفلسطينية؛ في حين عرّف يوآف بيليد، من جامعة تل أبيب، إسرائيل بـ "الجمهورية الإثنية" حيث في إمكان اليهود الإسرائيليين، حصراً، بلوغ "لبّ الجمهورية"، بينما يُمنح مواطنوا إسرائيل الفلسطينيون مواطنة اسمية فقد وضعيفة القيمة جداً. ومستلهماً عمل بيليد، قدم دان رابينوفيتش - المحاضر في الأنثروبولوجيا في الجامعة العبرية في القدس - أول تفسير إثني متطور للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، ينشر منذ السبعينات. ومستفيداً من عدد كبير من الأعمال النقدية التي نشرت في الأعوام الأخيرة، عن مواطني إسرائيل الفلسطينيين، يختار رابينوفيتش، على العكس من مؤلفين كثيرين، عدم التركيز على المستوى العام للدولة الإسرائيلية أو لـ "المجتمع الإسرائيلي، وإنما على ما سماه "المؤسسة الفرد".

في هذا الكتاب، يقوم المؤلف باستكشاف حالات معينة من الاحتكاك والصراع والتعاون، في المدينة الإسرائيلية الجديدة نتسرات عيليت (كما تسمى "الناصرية العليا" باللغة العبرية)، خارج مدينة الناصرة التوراتية مباشرة. تأسست نتسرات عيليت سنة 1957 كجزء من اندفاع إسرائيل لـ "تهويد الجليل"، وهي السياسة القائمة التي دعمتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ سنة 1949، والتي موهتها السلطات الإسرائيلية،

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>

خبثاً، بمفهوم "تطوير الجليل" ("بتّواح هغليل"). والرؤية الإسرائيلية الرسمية لنتسرات عيليت هي أنها "مدينة جديدة يهودية بحتة" (ص 7)، في قلب المنطقة العربية في الجليل، وهي المنطقة التي بقيت، على الرغم من هلاك وتشريد الكثيرين من الفلسطينيين سنة 1948، ذات أكثرية فلسطينية ساحقة. في الواقع، شُيدت نتسرات عيليت - الآهلة، في الدرجة الأولى، بمهاجرين يهود من أوروبا الشرقية، جيء بالكثيرين منهم عند وصولهم إلى إسرائيل إلى الجليل، وفي الغالب مباشرة من المطار - على أراضٍ صادرة من الفلسطينيين المحليين. ومن ناحية سياسية وسكانية، صُممت هذه المدينة الجديدة لتأكيد السيطرة اليهودية على الجليل، على حساب الفلسطينيين المحليين، في الغالب، والذين تم إبعادهم عن أراضي أسلافهم الزراعية. ومما يثير السخرية، في أي حال، أن هذه الرؤية الصهيونية لنتسرات عيليت "اليهودية البحتة" أخذت تتلاشى، بالتدرّج، في السبعينات والثمانينات، مع وصول السكان الفلسطينيين من الناصرة المجاورة. وبسبب النقص المزمن في المساكن في المدينة العربية، بدأ هؤلاء العرب يستأجرون ممتلكات، أو يشترونها، في نتسرات عيليت فأصبح في المدينة الجديدة، حالياً، 25.000 يهودي إسرائيلي و3500 فلسطيني إسرائيلي، أي ما يعادل ثُمّن سكان المدينة تقريباً.

يستند هذا الكتاب، إلى حد كبير، إلى عمل ميداني قام به المؤلف في نتسرات عيليت، في أواخر الثمانينات. وفيه دراسات لحالات معينة مختارة تبحث في السوق العقارية النقسمة في البلدة، وفي الطريقة التي ينظر بها اليهود والفلسطينيون الإسرائيليون إلى قضايا المنطقة، والسيطرة الإقليمية، والتعليم المنفصل، وغير ذلك من القضايا المثيرة للنقاش. غير أن "أبطال" إثنوغرافيا الاستبعاد في الجليل عند رابينوفيتش هم ثلاثة فلسطينيين مقيمين بنتسرات عيليت: طبيب، ومدرب لكرة السلة، وسياسي محلي هو العربي الوحيد في مجلس البلدة المحلي. إنهم يخضعون للنظام الإسرائيلي الرهيب الذي يهشم المواطنين الفلسطينيين، وينحاز ضدهم في معاملاته لهم في ميادين الحياة العامة كافة، لكن هؤلاء الثلاثة - الذين قدّم المؤلف أسماءهم وسيهرهم التفصيلية - مثابرون ومجتهدون، وذوو نزعة إلى العمل المهني، وناجحون في مهنتهم، ويؤيدون، بصدق، العصامية، والليبرالية الفردية الخاصة بالطبقة الوسطى، والديمقراطية التمثيلية. بالنسبة إلى رابينوفيتش، فإن الرجال الثلاثة رمز للجالية الفلسطينية في نتسرات عيليت - وهي جالية مسيحية، في الغالب، تسعى

لاستخدام قدرتها الشرائية الاقتصادية كي يتم استيعابها في بلدة إسرائيلية. ومع ذلك، يبيّن المثال نفسه للأفراد الثلاثة أيضاً "أن ليس هنالك أي مكان في نتسرات عيليت [كذا] لتجمع فلسطيني، ولا يتوقع أن يكون هنالك مثل هذا المجال في أي مكان آخر في إسرائيل، ما دام الإسرائيليون يرون أنفسهم مواطنين وعملاء لـ "دولة يهودية" (ص 184).

إن صورة نتسرات عيليت التي يقدمها هذا العرض الإثنوغرافي اللافت للنظر معقدة ومتناقضة. والدراسة (بكلمات المؤلف) "هي مسيرة موجّهة بموازاة الحدّ، وعرض للجوانب المتداخلة حيث المظاهر المعقدة والمتناقضة، في الغالب، للوضع الحدودي يتم التفاوض بشأنها وتتفاعل بصورة بالغة الحيوية"، وحيث القضايا الكبيرة في المواجهة بين الإسرائيليين والفلسطينيين تنخفض إلى حوادث شخصية، وتحوّل إلى مستوى أشد حميمية وواقعية. وبدلاً من أن يصف نتسرات عيليت، بصورة مبسطة، بأنها جزيرة للعنصرية وللتعصب اليهوديين، يجادل المؤلف، محقاً، أن المشاعر المعادية للفلسطينيين التي اشتهرت بها البلدة منذ أوائل الثمانينات، بفعل التغطية الإعلامية الواسعة، في الدرجة الأولى، تعكس أوضاعها الفريدة والآراء المعادية للعرب، المنتشرة بين أغلبية اليهود الإسرائيليين.

وعلى مستوى نظري أكثر اتساعاً، يحاول المؤلف أن يقترح نقداً لليبرالية الفردية، مشيراً إلى كتاب مايكل مان (Michael Mann) بشأن العلاقة بين الطبقات العمالية الغربية والديمقراطية الليبرالية، ويناقش هذا الأخير أن انعدام التماسك داخل الطبقات العمالية هو الذي يمنع المجموعات الخاضعة من إطاحة النظام الذي يهّمّها. المشكلة هي أن "الأبطال" الثلاثة في تفسير رابينوفيتش الإثنوغرافي، وعلى الرغم من وضوح التمييز ضدّهم الذي يمارسه النظام الإسرائيلي، لا يكاد يمكن وصفهم بأنهم من الطبقة العاملة، بأن مقياس. والأكثر إشكالاً، في أي حال، هو اقتراح المؤلف أن إسرائيل تمرّ بـ "ثورة ليبرالية"، وأن البلد في طريقه كي يصبح ديمقراطية ليبرالية غربية (ص 184). ولا يمكن، لا من الناحية النظرية ولا العملية، أن يصار إلى التوفيق بين هذا الزعم وبين دعم المؤلف المتكرر للرأي في أن دولة إسرائيل هي "جمهورية إثنية" بسيطرة يهودية حصريّة. مع ذلك، يبدو رابينوفيتش أكثر إقناعاً حين يعرض المناقشة النظرية أنه، حتى لو أمكن اختيار بعض الفلسطينيين الأفراد - مثل "الأبطال" الثلاثة في دراسته - وإدخالهم كأفراد في "بنية الليبرالية الإسرائيلية

المتفتحة"، فإن ذلك سيوفر "تغطية شرعية كاملة لاستبعاد الفلسطينيين إلى ما لانهاية".

هنالك مفهوم نظري آخر ممتع جاء به المؤلف، يركز على الأيديولوجيا الصهيونية للدولة الإسرائيلية وعلى المناظرة بشأن "ما بعد الصهيونية" في إسرائيل. ويجادل رابينوفيتش قائلاً: "لقد عملت الصهيونية وأيديولوجيتها، منذ زمن بعيد، كجيش واق للمؤسسات والممارسات الإسرائيلية الاستيعادية." وبالتالي، فإذا كان لا بدّ من تشجيع طرق جديدة لإعادة التعريف بإسرائيل وتصورها، فإنه يجب تفكيك الحدود الداخلية في الدولة كما في الشعبين اليهودي والفلسطيني الإسرائيليين أيضاً، وإعادة فحص هذه الحدود. "إن تعبير ما بعد الصهيونية أصبح أكثر قبولاً في الحياة الإسرائيلية العامة؛" هكذا يؤكد المؤلف بصورة مبالغة في التفاؤل؛ إلاّ إنه يعترف بأن معنى التعبير لا يزال غامضاً، وبأن المناظرة في إسرائيل بشأن ما بعد الصهيونية لا تزال في بدايتها. وما أن يصبح التعبير أوسع تفصيلاً وأكثر عملائية حتى يصبح في إمكانه، وكما يعتقد رابينوفيتش، التحول إلى أداة ذات نفع كبير من الناحيتين النظرية والسياسية. والمؤلف، على الرغم من هذه المقاربة العامة منه لـ "ما بعد الصهيونية"، لا يقدم لنا إلاّ معالجة هزيلة ومقتضبة ومخيبة للأمل لهذا الخطاب الجديد المدهش لـ "ما بعد الصهيونية" في إسرائيل. مع ذلك، يمكن تفسير الأمر أن همّ رابينوفيتش الأول ليس المستوى النظري العام للدولة وللمجتمع في إسرائيل، وإنما الدور الفريد للإثنوغرافيا كأداة للبحث في العلوم الاجتماعية. وفي هذا الإطار، على الأقل، فإن هذه الدراسة بشأن إثنوغرافيا الاستبعاد في الجليل، وهي دراسة مرغوب فيها إلى حد كبير، تبين أن الأنثروبولوجيا تستطيع أن تقدم مساهمتها التي تأخرت كثيراً في دراسة إسرائيل ومواطنيها الفلسطينيين.

نور مصالحه

أستاذ جامعي فلسطيني